1- مفهوم الثقافة:

يطرح مفهوم الثقافة إشكاليات كبرى تفوق ما يطرحه مفهوم الأمة،وربما يمكن أن نجزم أن حدود الثقافة وقضاياها من الموضوعات التي لا يمكن أن نقف فيها على أرضية صلبة للتعريف،ولعل هذا ما جعل "ريموند وليامز" يقول:«لا أعرف كم مرة تمنيت لو أنني لم اسمع بهذه الكلمة اللعينة»[1]،حيث يعتبر انه من فرط استعمالها صار من الأجدى الحديث عن الثقافة في تقطعاتها وأجزائها والاشتغال على قضايا فيها مباشرة دون التعرض إلى الثقافة في كليتها التي تُراكم عددا كبيرا من المفاهيم،فقد أحصى عالمي الاجتماع "كروبر ألفريد" و "كلايد كلوكهن" في خمسينيات القرن الماضي مالا يقل عن 164 تعريف للثقافة[2]وفي اللحظة الراهنة قد نتحدث على ما لا نهاية من التعريفات لها خاصة مع ظهور حقول الدراسات الثقافية والتي منحت للثقافة أبعادا جديدة جعلت مهمة رسم حدود لها تبدو شبه مستحيلة ضمن هذه الحقول المعرفية الجديدة[3] التي ظهر فيها مفهوم الثقافة العليا والخفيضة والجماهيرية والإثنية وثقافة العرق وثقافة الهامش وغيرها من المصطلحات.

وينقل "دافيد انجليز" و "جون هيوسين" في كتابهما "مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة" تعريفا متكاملا للثقافة يغطي المفهوم من زوايا متعددة؛إذ يعرفانها في ستة عناصر[4]:

1- الثقافة أنماط فكرية ومعتقدات وقيم شائعة بين الأفراد.
2- الثقافة متعددة بتعدد الأمم والأعراق والإثنيات.
3- الثقافة تحتوي على المعنى.
4- الثقافة شبكة من الرموز.
5- الثقافة تُعلَّم.
6- الثقافة اعتباطية لا طبيعية.

إن هذه النقاط الست تستعرض وتكثف جملة من التعاريف للثقافة حيث تأخذ منها الجوانب الأساسية التي من خلالها نستشف الفهم المتكامل للثقافة،ويعتبر "كليفورد غريتز" أن الفهم السيميائي " Sémiotique" للثقافة بوصفها شبكة رمزية من العلامات أقرب فهما إلى روح العصر من حيث الدقة وسهولة التطبيق[5].

وكون هذه الورقة ذات منحى وظيفي كان لزاما علينا الحديث عن تعريف الوظيفية"Le fonctionnalisme"للثقافة التي تنظر لها كنسق عام يحتوي على انساق فرعية،ف"برسونز" كأحد أكبر المنظرين الاجتماعيين للوظيفية يعتبر أن الثقافة «هي كل سلوك اجتماعي قائم على الرمز»[6]ويتحدث عن النسق الثقافي الذي يتكون من انساق فرعية[7]هي :

- أنساق الأفكار والمعتقدات.
- أنساق الرموز التعبيرية.
- أنساق التوجيه القيمي.

إن مفهوم النسق الثقافي عند "برسونز" يأخذ أهميته في كونه "نمطا للتماسك" بين انساق الفعل الأخرى،كنسق الشخصية،والنسق الاجتماعي،والنسق البيئي[8]؛حيث أن مركزيته بين انساق الفعل جعلته حافظا للتوازن والتماسك الاجتماعي،وهذا راجع لقدرة الثقافة على بناء التوازن الاجتماعي الذي في غيابه لا يمكن الحديث عن مجتمع صحي ومتماسك،وربما هذا ما جعل الإبراهيمي يقول: «المثقفون هم حفظة التوازن في الأمم،وهم القومة على الحدود أن تهدم وعلى الحُرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ»[9].

إن هذا الوعي الذي يحققه الإبراهيمي في مسألة الثقافة ودورها في الحفاظ على التوازن الاجتماعي يتجلى بوضوح في تعريفه لها،يقول الإمام: «كلمة المثقف آتية

من تثقيف الرمح وهو تقويم قناته بغمزها وتشذيب زوائدها الناتئة وإزالة الاعوجاج من كعوبها،ويقولون للغلام المتدرب على اللعب بالسلاح وعلى الرمي بالحراب والتلاعب بالرماح،غلام مثقاف وهو وصف قريب الصلة بكلمة التثقيف،ولم تكن العرب تستعمل كلمة مثقف بالمعنى الذي نعرفه الآن،وإنما كانوا يقولون في مثله رجل لقن وزكن ويقولون في معنى الثقافة عندنا اللقانة والزكانة ولمّا جاءت نهضتنا الحاضرة اختارت للدلالة على هذا المعنى كلمة الثقافة وجعلتها ترجمة لكلمة إفرنجية»[10].

إن الإبراهيمي في هذا التعريف اللغوي لثقافة يشير إلى غياب معناه الاصطلاحي في المعجم العربي،ويجتهد في تقديم كلمات عربية تكون قريبة لمعنى الثقافة كما نعرفه اليوم،فيذكر كلمة "اللقانة" و " الزكانة" اللتان في تقديره تقتربان من معنى الثقافة في المعاجم العربية؛ذلك أن هذا الغياب في المعاجم العربية لم يمنع الثقافة من الحضور في التراث العربي كفعل وممارسة[11].

ويواصل " الإبراهيمي" تعريفه للثقافة فيقول: «وقد تتسع الثقافة بوفرة الحظ من الأخلاق وكثرة المعلومات وقد تضيق بقلتهما وقد تنقسم باعتبارات جنسية أو لغوية أو دينية فيقال: الثقافة العربية أو الفرنسية ويقال: الثقافة الإسلامية أو المسيحية مثلا،وإني محدثكم عنها على حسب ما أتذوقه من روح الكلمة في مدلولها العربي وعلى ما أعلم من تطبيقها في العرف الشرقي الراقي في نهضته الفكرية الحالية فإن رأيتم في كلامي بعض المخالفة لمعناها الإفرنجي فعذري أني لا اعلم مدى ما يراد منها في ذلك الاصطلاح»[12]إن هذا النص "الإبراهيمي" يؤكد على ما ذهب البحث إليه من وعي الإمام بسؤال الثقافة حيث نجده يتحدث عنها في تعددها واختلافها،ويعتبر تصوره الخاص لثقافة منزوع من روح المصطلح العربي،على إن هناك دلالات أخرى للكلمة في لغات أخرى،مما يدل على هذا الوعي بالسياقات

المختلفة التي تعطي للكلمة تنوعا دلاليا لا ينكره الإمام أو يكتفي بالمعنى العربي على أنه المعنى الأوحد.

---

[1] – طوني بينيتس وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2010، ص227.

[2] – دافيد إنجلز، جون هيوسين، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، تر: لما نصير، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، قطر ، ط1، 2013، ص16.

[3] – رونان ماكدونالد، موت الناقد، تر: فخري صالح، دار العين للنشر ، المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2014، ص135.

[4] – دافيد إنجلز، جون هيوسين، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ص17-18.

[5] – كليفورد غريتز، تأويل الثقافات ، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2009، ص82.

[6] – محمد عبد المعبود مرسي، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، درا سحر ، مصر، ط1، (دس)، ص 92.

[7] – المرجع نفسه، ص93.

[8] – محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار مجدلاوي، الأردن، ط1، 2007، ص 188.

[9] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص126.

[10] – المرجع نفسه، ص125.

[11] – مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سوريا، ط11، 2005، ص20.

[12] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص126.